

مصطلحات و مفاهيم في تاريخ الجزائر الحديث استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية : واقع أم وهم؟

أ. أمين محرز

أفادت المدرسة الاستعمارية أنّ من بين الحُجج التي سوّلت لفرنسا غزو إيالة الجزائر وحوّلت لها الاحتفاظ بها، أنّها كانت مستقلة فعلياً عن الدولة العثمانية و لا نفوذ حقيقي للسلطان عليها.

أولاً : إنّ الرأي الشائع القائل بأنّ منح الباشوية لدايات الجزائر يعتبر بحدّ ذاته استقلالاً - أو بتعبير آخر انفصلاً - عن الدولة العثمانية، لهو رأيٌ مجانيٌ للحقيقة التاريخية، إذ أنّ الدولة العثمانية أصلاً لم تتّبع مركزية* صارمة تجاه حكم جزائر الغرب، بل كان حكمًا ذاتيًا اتّسمت خلاله تدخلات الديوان الهمايوني بالمرونة، خصوصاً و أنّ عموم البلاد الجزائرية كما هو معلوم انضوت تحت السلطة العثمانية بإرادة أهاليها. ورغم أنّ الروابط ضعفت نسبيًا خلال القرن السابع عشر - و كانت أبرز مظاهر هذا التراخي ربط علاقات دبلوماسية مع الدول المسيحية بمعزل عن الدولة العثمانية - بسبب تناقص اهتمام الدولة بمجالها الغربي و تنفّذ الإنكشارية على سلطة الولاية، فإنّ حاجة الإيالة من وقتٍ لآخر للمجنّدين الأتراك العثمانيين لأجل ضمان استمرارية أوجاقها، حالت دون حدوث قطيعة و أبقّت على أمارات الولاء و الدعم العسكري قائمة إلى حين سقوط الجزائر عام 1830م. كما أنّه تجدر الإشارة إلى أنّ حكّام الإيالة، الذين لم يكونوا يرسلون إتاوة أو هدايا إلى الباب العالي قبل سنة 1711م إلا في مناسبات نادرة، جعلهم سعيهم في نيل الباشوية يرسلون هدايا - كان يتولّى تسليمها موظّف رفيع المستوى دعي آغا الشكشكش أو قائد الهدية - بشكلٍ أكثر تواترًا كتعبير رمزي لتبعتهم. و بناءً على ما سبق ذكره، يمكننا القول أنّ صيرورة الدايات ممثلاً للسلطان صبّ في خانة تكريس استقلالية - أكثر من أيّ شيءٍ آخر - اكتسبت في الواقع سالماً خلال فترة الأوغوات (1659-1671).

* المركزية تهدف إلى تركيز السلطات في مركز قرار واحد، و الذي يمكن أن يفوض جزءاً من هذه السلط إلى أعوانه عن طريق ما يسمى باللامركزية (déconcentration). هذه العملية عملية تُبأشر داخل المنظومة الإدارية، حيث أنّ العلاقة التي تربط بين مختلف مكونات هذه المنظومة هي علاقة مبنية أولاً على سلطة تراتبية (Pouvoir hiérarchique)، و ثانياً على مبدأ التعيين. أمّا اللامركزية، فإنّها تميل إلى تعدّد مراكز القرار وذلك بتفويض السلطة (pouvoir) أو التخلّي عنها لصالح المعنيين بالأمر أو لممثليهم المباشرين، حيث أنّ العلاقة بين السلطة المركزية و بين المنتخبين المحليين مبنية أولاً على المراقبة على الأعمال و ليس على الأشخاص، و ثانياً على مبدأ الانتخاب.

ثانياً : إنَّ الرأي الأقلَّ تواتراً، الَّذي اعتبر ثورة الأَغوات سنة 1659 "انفصالاً" - وهذا المصطلح ما هو إلاّ تعبير آخر عن الاستقلال - عن الدولة العثمانية غير صحيح أيضاً ؛ و يكفي للتثبّت من ذلك استعراض سلسلة ردود الأفعال أو الانعكاسات الّتي تمخّضت عنها تلك الواقعة : فقد غضب الصدر الأعظم من انقلاب أوجاق الجزائر، و عدّه خروجاً عن طاعة السلطان، و قام بإرسال فرمان إلى الجزائريين ينذرهم فيه : "أخيراً لن نرسل إليكم والياً، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر، فالجزائر إن كانت و إن لم تكن شيء واحد، و من بعد ذلك إن اقتربتم من الممالك العثمانية فلن تكونوا راضين" ؛ كما أرسل فرماناً آخر إلى الموانئ في جميع السواحل العثمانية، و إلى والي مصر و شريف مكّة، يطلب منهما منع الجزائريين من الذهاب إلى الحجّ و عدم بيع السلاح لهم، و عدم السماح لهم بالاقتراب من السواحل العثمانية، ممّا كان يعني تعطلّ حركة الحجّ و التجارة إلى المشرق مع ما قد يسبّبه كلّ ذلك من استياء في أوساط الرعية و العسكر على حدّ سواء، فضلاً عن توقّف عمليات تجنيد الإنكشارية الحيوية لاستمرار الأوجاق.

و بالفعل، لقد أبدى عدد متزايد من الجزائريين، و بالأخصّ من "الأتراك"، استياءه ممّا آلت إليه العلاقات مع الدولة العثمانية من قطيعة و حصار ؛ و لذا، حاولوا إعادة الأمور إلى نصابها مع الباب العالي، و قاموا بإرسال وفدٍ خلال شتاء 1661 لطلب الشفاعة من السلطان و لتجديد الولاء له. و لمّا حظي أعضاء هذا الوفد بمقابلة السلطان، اشتكوا له وضع البلاد و أقرّوا : "لو أرسلت لنا كلباً لقبلائنا باشا علينا" ؛ و لكن الأمر كلّه كان بيد الصدر الأعظم كوبرولي الَّذي لم يستمع لهم و لم يقبل استشفاعهم. و هكذا، لم يملك الوفد الجزائري من خيار سوى الانتظار بصبر أن يلين موقف المذكور.

سيتميّز موقف الباب العالي في غضون سنة 1662، بيد أنّ هذا التحوّل لم يكن راجع أساساً إلى الهدايا و العشرة آلاف سكّة ذهبية الّتي وزعها الوفد، بل إلى الهزائم البحرية الّتي تكبّدها الأسطول العثماني حينها أمام البنادقة في بحر إيجه، و الّتي أبرزت الحاجة إلى الإستعانة بالقوّة البحرية الجزائرية المتمرّسة في مواجهة البندقية و حلفائها. و بناءً على ذلك، ولّى السلطان باشا جديد ليست له صلاحيات حقيقية كممثّل عنه لدى أوجاق الجزائر. و هكذا حافظت حاجة كلّ طرف للآخر على روابط الولاء و التبعية بين الدولة العثمانية و إيالتها البعيدة.

و أخيراً، بالوسع الردّ على المتحمّجين بانفصال الجزائر بدعوتهم إلى الرجوع إلى الكمّ المعتبر من المراسلات المتبادلة بين الجزائر و إسطنبول المحفوظة في دور الأرشيف، و كذلك إلى تدبّر الطرح التالي : "إن صحّ أنّ إيالة الجزائر كانت مستقلة فعلياً عن الدولة العثمانية، فذلك يعني أنّها كانت قادرة نظرياً على فكّ ارتباطها كلياً"، و العكس صحيح.

سؤال : قم بمناقشة مفاهيم الاستقلال و الاستقلالية و الحكم الذاتي، مع مراعاة تدعيم ذلك بأمثلة مأخوذة من التاريخ العثماني و اختيار الأنسب منها في سياق الإجابة.

المصادر و المراجع المعتمدة :

- أحمد عبيد، "التاريخ الجزائري: تقييم و نقد - حالة الجزائر العثمانية"، في : إنسانيات 47-48، 2010، ص ص 57-75.
- عمّار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج. 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.
- شحاتة، حسن إبراهيم. أطوار العلاقات المغربية العثمانية. قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510-1947)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1981.
- جميل، عائشة. الجزائر و الباب العالي من خلال الأرشيف العثماني 1520-1830م، دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة جيلالي لباس، سيدي بلعباس، 2017.
- كوران، أرجمنت. السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، 1970.
- حمّاش، خليفة إبراهيم. العلاقات بين إيالة الجزائر و الباب العالي من سنة 1798 إلى 1830م، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الإسكندرية، 1988.
- زهرة، زكية. التنافس الفرنسي الإنكليزي على الجزائر و موقف الباب العالي منه (1792-1830)، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 1997.
- فلّوح، عبد القادر. العلاقات الجزائرية العثمانية في الفترة (1233-1246هـ الموافق لـ 1818-1830م)، على ضوء وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2010.
- محرز، أمين. الجزائر في عهد الآغوات (1659-1671م)، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2008.
- مريخي، رشيد. الجزائر في عهد الداوي مصطفى باشا 1212-1220هـ/1798-1805م، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2011.

- بن نعماني، سيد أحمد. "وظيفة وكيل الجزائر لدى الدولة العثمانية و بعض إيلاتها من خلال بعض وثائق الرصيدين العثمانيين الموجودين في الجزائر"، في : مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، 1، 2013، ص ص. 198-207.

- التميمي، عبد الجليل. "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519"، في : م.ت.م.، 6 (يوليو 1976)، ص ص. 116-120.

- حمّاش، خليفة. "الجزائر و الحرب اليونانية العثمانية (1821-1827م)", في : م.ت.م. 65-66، أوت 1992، ص ص. 175-185.

- الطبايلي، عبد الحفيظ. "الولايات المغاربية في الأرشيف العثماني. قراءة في بنية الوثيقة العثمانية"، في : العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية و المتوسطة، ط.1، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، 2005، ص ص. 35-71.

- Charrière, E. **Négociations de la France dans le Levant ou Correspondances, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France à Constantinople et des ambassadeurs, envoyés ou résidents à divers titres à Venise, Raguse, Rome, Malte et Jérusalem, en Turquie, Perse, Géorgie, Crimée, Syrie, Égypte, etc. et dans les États de Tunis, d'Alger et de Maroc**, 4 T., Imprimerie nationale, Paris, 1848-1860.

- Grammont. H.D. de, **Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)**, Ernest Leroux, Paris, 1890.

- Michel Hervé, **Relations entre la régence d'Alger et la Sublime Porte du XVI^e au XVIII^e siècle**, 2 T., Thèse de doctorat en Histoire et civilisations, EHESS, Paris, 2003.

- Mantran, R. "L'évolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottoman du XVI^e au XIX^e siècle. Essai de synthèse", in : C.T. 26-27, 1959, pp. 319-333.

- Mantran, R. "L'évolution des relations politiques entre le Gouvernement ottoman et les Odjaks de l'ouest du XVI^e au XIX^e siècle" in : R.H.R. 2-3, 1964, pp. 51-66.

- Vatin, J.-C. "L'Algérie en 1830, Essai d'interprétation des recherches historiques sous l'angle de la science politique", in : R.A.S.J.E.P. 7, 1970, pp. 977-1058.

- Watbeld, E. "Pachas_ Pachas-Deys", in : R.A. 17, 1873, pp. 438-443.